

مرثية لابن فضل الله العمري في ابن تيمية لم تنشر

تحقيق : محمد اليعلاوي

الشهاب أحمد بن يحيى ابن فضل الله (ت 749 / 1349) هو صاحب الموسوعة الجغرافية - التاريخية الموسومة بـ «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» التي جمع فيها من المعلومات عن أقطار العالم الإسلامي وغيره في عصره ، مما استفاده من مؤلفات سابقه ومعاصريه ، وما جمعه أثناء اشتغاله بالكتابة الديوانية في البلاط المملوكي ، ما وجد فيه المؤرخون اللاحقون ، ولا سيما المقرئزي ، مادة خصبة في وصف المدن وعرض الأحداث وضبط التراجم .

ولا يزال هذا الكتاب الضخم مخطوطا ، وإنما أهتم به الباحثون ، وخصوصا المستشرقين ، في حدود الأقاليم أو المواد التي حصروا فيها أشغالهم : وهكذا كان علامتنا الراحل حسن حسني عبد الوهاب من الأوائل الذين نشروا منه القسم الخاص بإفريقية والمغرب (مجلة البدر التونسيّة) . وآخر ما ظهر من المسالك هو «وصف ممالك مصر والشام والحجاز واليمن» بتحقيق أيمن فؤاد السيّد (المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، 1985) .

ولكنّ ابن فضل الله لم يقتصر على المعلومات الجغرافية والتاريخية ، بل أهتم أيضا بتراجم الرجال في قسم ثان من الكتاب «فانفرد بالترجمة لنفر لا نجد لهم ذكرا في غير ما أورد العمري» (مقدمة فؤاد أيمن السيّد لطبعته للجزء المذكور ، ص 16 م) .

* المرثية منقولة عن ترجمة ابن تيمية في كتاب المقفّي الكبير للمقرئزي (ترجمة رقم 462 مخطوط السليمية) .

وكنا آهتَمنا أثناء جمعنا لشعر شعراء الفترة العبيديّة في إفريقيّة ،
بالمجلّد السابع عشر من كتاب المسالك ، وقد خصّصه لأدباء المغرب
والأندلس ، وهذا القسم حقّقه باحث في نطاق رسالة مرحلة ثالثة بباريس ،
ولكنّه بقي مرقونا الى الآن .

ودفعنا الى الاهتمام به من جديد ما نحن بصددّه من تحقيق كتاب المقفّي
للمقرّيزيّ ، وهو قاموس رجالٍ ضخْمٌ : فالمقرّيزيّ ينقل أحيانا من مسالك
الأبصار بصريح العبارة ، وينقل الترجمة بحذافيرها . ويشوّه الناسخ العبارة
المنقولة ، ويحرّف الشعر ، فتصعب قراءة الترجمة في النسخة الفريدة من كتاب
المقفّي ونضطرّ الى التخمين والظنّ أو الى ترك بياض فيها وثغرات . وهذا ما
وقعنا فيه أثناء تحقيقنا لترجمة الفقيه الحنبليّ أحمد بن تيمية (ت 728) : فقد
« زين » المقرّيزيّ ترجمته بمقتطفات طويلة من ترجمة ابن فضل الله المزوّقة
المسجّعة وختمها بالمرثية التي أدرجها صاحب المسالك في ختام كلامه عن
الشيخ الحنبليّ .

وكان من حسن الحظّ أن استقدّمت دار الكتب الوطنيّة بتونس الأجزاء
التي صوّرها فؤاد سزكين من الكتاب بخطّ ناسخه ، فوضعتها على ذمّة
الباحثين وجنّبهم السفر إلى مظانّ المخطوط أو التوسّل المكرّر إلى دور الكتب
الضنيّة بنفائسها (1) . وكان من حسن حظّنا أن عثرنا في المجلّد الخامس منه
على الترجمة التي نقلها المقرّيزيّ ، فأمكننا الإصلاح والإكمال والتصويب .

وقد رأينا أن نقطف من الكتابين هذه القصيدة القويّة المؤثّرة التي تدلّ
على استمرار الإعجاب بأبن تيمية وبمواقفه الجريئة إزاء السلطان الجائر ،
والمارق المبتدع ، والصوفيّ الزائف ، حتّى بعد ما يزيد على القرن من وفاته .
والمرثية بعد هذا لا تخلو من قيمة أدبيّة : فلهجتها الخطابيّة الإنشائيّة صدّى
للحماس الذي عُرف به ابن تيمية في مناظراته ودروسه وفتاويه .

(1) ولا يفوتنا أن نشكر الأستاذ إبراهيم شُبّوح محافظ دار الكتب على لطفه ومعاونته .

نص المراثية

(قال) ورثيته بقصيدة لي ، وهي [بسيط] :

أهكذا بالدياجى يحجب القمر ويحس النوء حتى يذهب المطر؟
 أهكذا تمنع الشمس المنيرة عن منافع الأرض أحيانا فتستتر؟
 أهكذا الدهر ليلا كله أبداً فليس يعرف في أوقاته سحر؟
 أهكذا السيف لا تمضي مضاربهُ والسيف في الفتك ما في عزمه خور؟
 5 أهكذا القوس ترمى بالعراء وما تصمي الرمايا وما في باعها قصر؟ (2)
 أهكذا يُترك البحر الحِصمُ ولا يُلوى عليه، وفي أصدافه الدرر؟
 أهكذا يتقي الدين قد عبث أيدي العدى وتعدى نحوه الضرر؟
 ألاين تيمية ترمى سهام أذى من الأنام ويدمى الناب والظفر؟
 بذ السوابق تمتد العبادة لا يناله ملل فيها ولا ضجر
 10 ولم يكن مثله بعد الصحابة في علم عظيم وزهد ما له خطر
 طريقه كان يمشي قبل مشيته بها أبو بكر الصديق أو عمر
 فرد المذاهب في أقوال أربعة جاؤوا على أثر السباق وأبتدروا
 لما بنوا قبله عليها مذاهبهم بنى وعمر منها مثل ما عمروا
 مثل الأئمة قد أحى زمانهم كأنه كان فيهم وهو متظر
 15 إن يرفعوهم جميعاً رفع مبتداً فحقه الرفع أيضاً إنه خير (3)
 أمثله بينكم يلقى بمضيعة حتى يطيح له عمدا دم هدر؟ (4)
 يكون وهو أمانى لغيركم تنوبه منكم الأحداث والغير
 والله لو أنه في غير أرضكم لكان منكم على أبوابه زمر
 مثل ابن تيمية ينسى بحبسه حتى يموت ولم يكحل به بصر؟
 20 مثل ابن تيمية ترضى حواسده بحبسه أو لكم في حبسه عذر؟

(2) أصمى الرامى الصيد : قتله مكانه .

(3) تورية بالرفع ، والبيت من خيال النحلة .

(4) طاح هنا في معنى ضاع .

مثل ابن تيمية في السجن معتقل
 مثل ابن تيمية يرمى بكل أذى
 مثل ابن تيمية تذوى خمائله
 مثل ابن تيمية شمس تغيب سدى
 25 مثل ابن تيمية يمضي وما عبت
 مثل ابن تيمية يمضي وما نهلت
 ولا تجارى له خيل مسومة
 ولا تحف به الأبطال دائرة
 ولا تعبس حرب في مواقفه
 30 حتى يقوم هذا الدين من ميل
 بل هكذا السلف الأبرار ما برحوا

والسجن كالغمد وهو الصارم الذكر؟
 وليس يحلى قدى منه ولا نظره؟
 وليس يلقط من أفنائه الزهر؟
 وما ترق بها الأصال والبكر؟
 بمسكه العاطر الأردن والتطرا
 له سيوف ولا خطية سمر
 وجوه فرسانها الأوضاح والغرر
 كأنهم أنجم في وسطها قمر
 يوماً ويضحك في أرجائه الظفر
 ويستقيم على منهاجه البشر
 يبلى اصطبارهم جهداً وهم صبر

☆

☆

تأس بالأنبياء الطهر كم بلغت
 في يوسف في دخول السجن منقبة
 ما أهملوا أبداً، بل أهملوا لمدى
 35 أيزهب المنهل الصافي وما نعت
 مضي حميداً ولم يعلق به ضرر
 طود من الحلم لا ترقى له قنن
 بحر من العلم قد فاضت بقيته
 يا ليت شعري هل في الحاسدين له

فيهم مضرّة أقوام وكم هجروا
 لمن يكابد ما يلقي ويصطبر
 والله يعقب تأييداً وينتصر
 به الظماء ويبقى الحماة الكدر؟ (5)
 وكلهم ضرر في الناس أو وذر (6)
 كأنما الطود من أحجاره حجر (7)
 فغاضت الأبحر العظمى وما شعروا
 نظيره في جميع القوم إن ذكروا؟

(5) نفع بالماء : روي . والظماء - ج الظامىء - والحماة : الطين الأسود .

(6) الودر : اللحم المقطع . والوضر : الوسخ .

(7) لعله يعني : الجبل حجرة من حجر ابن تيمية ، ولا وجه لتشبيه عقله أو خصاله بالحجر ، ولو الكريم .

يَمِيزُ النَقْدَ أَوْ يُرَوِّى لَهُ خَبْرٌ؟
أَوْ مِثْلُهُ مِنْ يَضُمُّ الْبَحْثَ وَالنَّظْرَ؟
كَفَعَلَ فِرْعَوْنُ مَعَ مُوسَى لَتَعْتَبِرُوا؟
قَدَّامَنَا وَانْظُرُوا الْجَهَالَ إِنْ قَدَرُوا
فَلْيَقِفْ الْحَقُّ مَا قَالُوا وَمَا سَحَرُوا
حَتَّى يَكُونَ لَكُمْ فِي شَأْنِهِ عِبَرٌ
فَأَمِنُوا كُلَّهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا كَفَرُوا
وَلَيْتَهُمْ نَفَعُوا فِي الضِّيمِ أَوْ نَفَرُوا

☆

أَوْ خَائِضٌ لِلوَعَى وَالْحَرْبِ تَسْتَعِيرُ؟
سِهَامُهُ مِنْ دَعَاءٍ عَوْنُهُ الْقَدْرُ(8)
عَلَى الشَّامِ وَطَارَ الشَّرُّ وَالشَّرُّ
طَوَائِفًا كُلُّهَا أَوْ بَعْضُهَا التَّنَزُّرُ(9)
مِثْلَ النِّسَاءِ بَظَلِّ الْبَابِ مُسْتَتِرٌ
أَقَامَ أَطْوَادَهَا وَالطَّوْدُ مُنْفِطِرٌ(10)
وَطَالَمَا بَطَلُوا طَغَوَى وَمَا بَطَرُوا

☆

حَقًّا! أَلْكَوْكَبَ الدَّرِيِّ قَدْ قَبِرُوا؟
وَأَنَّمَا تَذْهَبُ الْأَجْسَامُ وَالصُّوَرُ

40 هل فِيهِمْ لِحَدِيثِ الْمِصْطَفَى أَحَدٌ
هل فِيهِمْ مَنْ يَضُمُّ الْبَحْثَ فِي نَظَرٍ
هَلَّا جَمَعْتُمْ لَهُ مِنْ قَوْمِكُمْ مَلَأٌ
قُولُوا لَهُمْ: قَالَ هَذَا فَابْحَثُوا مَعَهُ
تَلْقَى الْأَبَاطِيلَ أَسْحَارُهَا دَهْشٌ
45 فَلَيْتَهُمْ مِثْلُ ذَاكَ الرَّهْطِ مِنْ مَلَأٍ
وَلَيْتَهُمْ أَذْعَنُوا لِلْحَقِّ مِثْلَهُمْ
يَا طَالَمَا نَفَرُوا عَنْهُ مِجَانِبَةً

☆

هل فِيهِمْ صَادِعٌ بِالْحَقِّ يَقُولُهُ
رَمَى إِلَى نَحْرِ غَازَانٍ مُوَاجِهَةً
50 بَتَلْ رَاهِطٌ وَالْأَعْدَاءُ قَدْ غَلَبُوا
وَشَقَّ فِي الْمَرْجِ وَالْأَسْيَافِ مُضْلَتَةٌ
هَذَا وَأَعْدَاؤُهُ فِي الدُّورِ، أَشْجَعُهُمْ
وَبَعْدَهَا كَسْرُوانَ وَالْجِبَالِ وَقَدْ
وَأَسْتَحْصَدُ الْقَوْمَ بِالْأَسْيَافِ جَهْدُهُمْ

☆

55 قَالُوا: قَبْرُنَاهُ، قُلْنَا: إِنَّ ذَا عَجْبٌ
وَلَيْسَ يَذْهَبُ مَعْنَى مِنْهُ مَتَّقِدٌ

(8) إشارة إلى سفارة ابن تيمية عن أهل دمشق إلى ملك التار القان غازان في ربيع الأول سنة 699 هـ ، وقد أطلال مترجموه في وصف جرأته على الملك المغولي . وانظر ما كتبه لاووست تعليقاً على ترجمة ابن كثير ، H. Laoust : Une biographie d'I.T. d'après Ibn Kathir B.E.O. 1943, vol. IX, 122.

(9) إشارة إلى انضمام ابن تيمية إلى الجيش السلطاني الخارج لقتال التتر في وقعة شقحب قرب مستنقعات المرج مرج راهط في رمضان 702 هـ . وقد أفتى الشيخ للمجاهدين بجواز قطع الصيام . وانظر لاووست ص 131 .

(10) إشادة بقتاله للدرزية جبل كسروان في ذي الحجة 704 هـ - انظر لاووست ، 134 .

يُجْرِي بِهِ دِيْمًا تَهْمِي وَتَنْهَمِرُ
لَمَّا قَضَيْتَ قَضِي مِنْ عُمَرِهِ الْعَمْرُ
وَزَارَ مَغْنَاكَ قَطْرُ كُلِّهِ قَطْرُ (11)
حَلَوُ الْمَرَاشِفِ فِي أَجْفَانِهِ حَوْرُ
تَأْسَى الْمَحَارِبُ وَالْآيَاتُ وَالسُّورُ
أَوْرَثَتْ قَلْبِي نَارًا وَقَدْهَا الْفِكْرُ
مِنَ الْأَنَامِ ، وَلَا أَبْقَى وَلَا أَذْرُ
أَعْنِكَ تَحْفَظُ زَلَّاتُ كَمَا ذَكَرُوا؟
أَهْلُ الزَّمَانِ ، وَهَذَا الْبَدُوُّ وَالْحَضَرُ
مِنَ الطَّرِيقِ فَمَا حَارُوا وَلَا سَهَرُوا
مُجَادِلًا ، وَهَمُّ فِي الْبَحْثِ قَدْ حَصَرُوا؟
رُشِدُ الْمَقَالِ فِزَالِ الْجَهْلِ وَالْغَرَرُ
عَظِيمٌ قَدْرِكَ لَكِنْ سَاعَدَ الْقَدْرُ
وَقَدْ يَكُونُ ، فَهَلَا مِنْكَ تُغْتَفَرُ (12)
أَمَّا أَجَذَّتْ إِصَابَاتٍ فَتَعْتَذِرُ؟
لَهُ الثَّوَابُ عَلَى الْحَالَيْنِ ، لَا الْوَزْرُ
سُئِلْتُ تَعْرِفُ مَا تَأْتِي وَمَا تَذُرُ؟
كَلَامُهُمَا مِنْكَ لَا يَبْقَى لَهُ أَثَرُ
«وَمَا عَلَيْكَ إِذَا لَمْ يَفْهَمِ الْبَقْرُ» (13)

لَمْ يَبْكِهِ نَدْمًا مِنْ لَا يَصُبُّ دَمًا
لَهْفِي عَلَيْكَ أَبَا الْعَبَّاسِ كَمْ كَرَمُ
سَقَى ثَرَاكَ مِنَ الْوَسْمِيِّ صَبِيهُ
60 [306] وَلَا يَزَالُ لَهُ بَرَقٌ يَغَاظِلُهُ
لِفَقْدِ مِثْلِكَ يَا مَنْ مَا لَهُ مِثْلُ
يَا وَارِثًا مِنْ عُلُومِ الْأَنْبِيَاءِ نَهَى
يَا وَاحِدًا لَسْتُ أَسْتَنِي بِهِ أَحَدًا
يَا عَالِمًا بِنُقُولِ الْفَقْهِ أَجْمَعِهَا
65 يَا قَامَعَ الْبَدْعِ الْبَلَاغِي تَجَنَّبَهَا
وَمُرْشِدَ الْفِرْقَةِ الضَّلَالِ نَهَجَهُمْ
أَلَمْ تَكُنْ لِلنَّصَارَى وَالْيَهُودِ مَعَا
وَكَمْ فَتَى جَاهِلٍ غَرًّا أَبْنَتْ لَهُ
مَا أَنْكَرُوا مِنْكَ إِلَّا أَنَّهُمْ جَهَلُوا
70 قَالُوا بِأَنَّكَ قَدْ أَخْطَأْتَ مَسْأَلَةً
غَلَطْتَ فِي الدَّهْرِ أَوْ أَخْطَأْتَ وَاحِدَةً
وَمَنْ يَكُونُ عَلَى التَّحْقِيقِ مَجْتَهِدًا
أَلَمْ تَكُنْ بِأَحَادِيثِ النَّبِيِّ إِذَا
حَاشَاكَ مِنْ شَبِّهِ فِيهَا وَمِنْ شَبِّهِ
75 عَلَيْكَ فِي الْبَحْثِ أَنْ تَبْدِيَ غَوَامِضَهُ

(11) القطر : المطر . والقطر والقطار : الجماعة المتابعة من الإبل أو الناس ، ولعلّه المقصود .
والقطر بضمّتين عود البخور .

(12) تلميح إلى ما خالف فيه الجمهور ، ولعلّها مسألة الطلاق ، أو زيارة القبور ، وقد أقيمت له في ذلك مناظرات ومحاکمات . والبدع المشار إليها في البيتين 65 و66 ، لعلّ المؤلف يقصد بها مقاومة ابن تيمية للطرق الصوفية .

(13) عجز بيت ضمّنه البحري (ديوانه طبعة الصيرفي ص 955) والبيت كاملاً هو :
عَلَيَّ نَحْتُ الْقَوَافِي مِنْ مَعَادِنِهَا وَمَا عَلَيَّ إِذَا لَمْ تَفْهَمْ الْبَقْرُ
وَأَنْظُرْ مَنَاقِشَ نِسْبَةِ الْبَيْتِ وَاخْتِلَافَ رَوَايَاتِهِ فِي الْهَامِشِ 12 مِنْ صَفْحَةِ 955 .

قَدَمْتُ لِلَّهِ مَا قَدَمْتُ مِنْ عَمَلٍ وَمَا عَلَيْكَ بِهِمْ، ذَمُّوكَ أَوْ شَكَرُوا
 هَلْ كَانَ مِثْلُكَ مِنْ يَخْفَى عَلَيْهِ هُدًى وَمِنْ سَمَائِكَ تَبْدُو الْأَنْجُمُ الزُّهْرُ؟
 وَكَيْفَ تَحْذَرُ مِنْ شَيْءٍ نَزَلَ بِهِ أَنْتَ التَّقِيُّ، فَمَاذَا الْخَوْفُ وَالْحَذَرُ؟ (14)

محمد اليعلاوي